صـــالح على شرنوبي

للأستاذ رجاء عبد المؤمن النقاش

في أمسية من أماسي سبتمبر الجارى ، وعلى شاطئ مدينة سمنود ، في جلسة حالمة ضمتني أنا والأستاذ أبو الفتوح عطيفة ، أخذ الأستاذ يحدثني عن الآثار الفكرية التي تركتها في نفسه إحدى زياراته للقاهرة ، وأخذت أصغي إلى حديثه الرقيق الدسم . . وفي لفتة من التفاتاته الشرقة ، انطلق يحدثني عن الأثر الذي تركه الشاعر الشاب صالح شرنوبي في نفسه ، حين سمعه للمرة الأولى في جمعية الشبان المسيحيين ضمن جماعة من شعراء الشباب ، وقد كان فيهم من المبرزين ، إن لم يكن أبرز شخصية وأميزها بينهم جميعا

قلت للأديب معقبا على لفتته تلك : إنني آمل أن يسد هذا الفنان الشاب ثغرة تركتها في الشعر العربي وفاة على محمود طه ، إذ أنني في الواقع أنظر إليه بعين الأمل في مستقبله ، ذاك الذي يلوح لي مشرقا باسما من وراء الإرهاصات الطيبة التي أراها في شعره وخصوصا وأنه ما زال في ريق شبابه ، وميعة عمره

ومضى ذلك اليوم ، وفي صباح اليوم التالي ، بينما أتصفح جريدة الأهرام ، لفت نظري في صحيفة الوفيات اسم الفنان المبدع ، وقرأت . . فإذا بالشاعر الذي كنا نتحدث عنه بالأمس قد شد راحلته إلى هناك . . إلى عالم الفناء ، أو قل إلى عالم الخلود

لقد كانت لحظة رهيبة أشد الرهبة على نفسي ، عنيفة أقسى العنف على شعوري ، تلك اللحظة التي قرأت فيها النبأ المؤسف . . لقد وقع على وقع الصاعقة التي زلزلت كياني كله ، وأشعلت في أعماق كوامن الشجن ، ونكأت في روحي جرحا عميقا كاد أن يندمل . . أجل ! لقد حملني هذا النبأ على جناحه هناك . . إلى صفحات الماضي القريب للأدب العربي ، فمنذ مطلع الربع الثاني من هذا القرن ، وحظ الأدب العربي سيء إلى حد يدعو إلى الأسف ، فكلما لاح في أفقه نجم ، وتطلع الحيارى إليه على أمل أن يكون بزوغه هدى لهم . . كلما لاح هذا النجم وبدأ ضوءه يملأ الآفاق ، ويخترق حجب الظلام ، ويشق طريقه إلى القمة ، استيقظ الحالمون بعد قليل غفوة على حقائق الواقع المخيفة ، وأفاق السكارى ليروا جثة باخوسهم أشلاء ممزقة ولما يرتووا بعد من كأسه المحطمة أمامهم في فناء الحانة الكئيبة الشاحبة

يوم فقد الأدب العربي أحمد الصاوي ومازال في شبابه ، ممتلىء النفس ، غض الجناح . . ولم يكد الأدب العربي يفيق من هول الصدمة ، حتى تمزقت من تاريخ الشعر العربي صفحة كادت أن تكون أخلد صفحة فيه . . هناك . يوم أصبح الناس على صوت الناعي لينبئهم أن أبا القاسم الشابي قد كفنته أعوامه الخمسة والعشرون . وما يكاد الناس ينفضون عن أفئدتهم غبار الذهول ، الذي عراهم حتى رأوا الأدب العربي يكاد يتفطر قلبه على فقيد جديد . . وكان الفقيد من السودان . . وكصاحبه أبي القاسم — لم يكن التيجاني يوسف بشير قد أتم في طريق العمر خمسة وعشرين عاما . . وتتوالى الفجائع على رأس أدبنا المكين ، فلا يمضي عام إلا وهو يودع إلى شاطىء الأعراف محمد عبد المعطي الهمشري ، ثم يتبعه إلى نفس النهاية نخري أبو السعود ، ويليه فؤاد بليبل . وها نحن نرى أمامنا نجما جديدا يخبو ، وعلى صرخات الأنين من الأفئدة الحرى ، والنفوس الملتاعة ، نشيع في موكب من الأحزان . . صالح على شرنوبي

لم يكد نوره يسطع على الدنيا فيلفت إليه الأنظار ، حتى سقط في طرفة عين كالبرق الخالب ، والسراب الكذوب . . إلا أنها قصة جديدة نستمعها من تاريخ أدبنا المعاصر . . وصفحة أخرى ريانة الصبا ، مياسة الجمال ، يطويها هذا التاريخ ليحمل محلها أخرى صفراء ذابلة ، توحي إلى النفس بالأسى وتدفع إلى محاجرنا منهمر الدمع

مضى صالح .. فى رونق شبابه ، فخلت منه شاعرية ناضجة وهيض إثره جناح جبار ، وانطوت بموته صفحة للفن الرفيع ما كانت لتقدر على طيها الأنواء والعواصف .. ولكنه الموت ! ولكنه القدر ، كانت روحه أصدق ما تكون بالفن ، وكان الفن أصدق ما يكون بروحه .. كل ما عرفته عنه يتفق كل الاتفاق مع شخصيته الفنية ، التى رسمتها له فى ذهنى إثر قراءتى المتتابعة له ، إذ لم تتح لى الظروف أن أتصل به اتصالا مباشرا يتيح لى أن أعرف كل شئ عنه .. كان المرجع فى رسم هذه الصورة فى رأسى هو شعره ، ثم بعض أصدقائه وزملائه الذين اتصلت بهم عن كثب وعرفت منهم بعض طباعه وخلائقه .. أول ظاهرة تلفت نظر الدارس فى شخصية هذا الفنان هى الصدق .. الصدق فى أجل صورة ، حيث يصدر عن طبيعة أصيلة ، ولا أثر للتكلف ولا للصنعة فيه .. فهذا لا يخرج القصيدة إلى حيز الحياة ، إلا بعد تجربة نفسية تصهر فيها أحاسيسه ومشاعره . تجربة يعيش فيها ويحس جوها ، ويكتشف دقائقها ، ويلم بحقائقها .. فأنت تشم من شعره فى كل قصيدة وكل بيت ، رائحة « الصدق » تفعم أحاسيسك ، وتملأ مشاعرك ، فتهزك من أعماقك هزا عنيفا ، وتدفعك قسرا إلى متابعته والاندماج فى جو قصيدته بعد أن يلهب نفسك ، ويشعل وجدانك ـ استمع إليه فى قصيدته على ضفاف الجحيم ، وهو يخاطب القاهرة وأضواءها القاسية :

إنى هنا فعربدى وثورى ... ملء عنان اللهو والسرور
ومزقى بضحك الخمور .. غلالة ينسجها تفكيرى
ليستر العريان من شعورى ... ويحجب اللافح من سعيرى
الجائع المستدمر الضرير ... يود لو يعصف بالقصور
وما كنيها عابدى الفجور ... التائهين فى حمى الخمور
الغافلين عن أسى الفقير ... ولوعة الشرد المدحور
الوالغين فى الدم المهدور ... من عصب الكادح والأجير
إنى هنا يا جنة الحقير ... آكل جوعى وأضم نيرى

قف طويلا أمام تلك التعبيرات الصادقة ، المنطلقة من إحساس صادق ، انتفياً الظلال التى تتركها على صفحات الشعور المفتوح بحرارتها وقوتها ، قف أمام « العريان من شعورى » ثم أمام « عابدى الفجور » .. « التائهين فى حمى الخمور » .. ثم قف بربك أمام الشطر الثانى من البيت الثامن « آكل جوعى وأضم نيرى » .. ثم قل لى هل هناك أصدق فى الإحساس والتعبير وفى دقة الأداء وعمقه ، من تلك التعبيرات ؟

ثم استمع بعد ذلك إلى هذه الومضات المتدفقة من أعماق وجدانه المشتعل :

هذا أنا فى العالم الكبير ... فوق ربى القطم المهجور
منخذا من أرضه سريرى ... من الحصى والطين والصخور
وتحت سقف الأفق المطير ... والقاصف المزمجر المغرور
أنام نوم العاجز الموتور ... على عواء الذئب والهرير
وقهقهات الرعد فى الدجور ... تسخر من عجزى ومن تقصيرى

هنا تصوير صادق ، وصادق جدا ، لا يقدر عليه إلا شاعر أحس أثر التجربة العميق فى نفسه ، بعد أن جمع إحساسه ، وحشد قدرته الفنية ، ليلتقط دقائق المنظر حتى يخرج صادقا كما هو فى نفس الفنان ، وكما هو فى أعماق الواقع ـ ولا أترك هذه القصيدة قبل أن أقف أمام هذه الأبيات :

وأنت يا زنجية الضمير ... تدرين قدرى وترين نورى
فتفجرين ضحكة المغرور ... أو ترتدين كفن القبور
هازئة كالزمن العبور ... من المثالى الفتى الطهور

قف أمام « زنجية الضمير » .. فلعل هذا التعبير يكون المفتاح الصادق لكل وثبة من وثبات شعوره وقفزة من قفزات فنه ، فى القصيدة كلها .. إنه يخاطب زنجية الضمير . فعليه أن يغترف من منبع السخط عليها ، كل لفظة تتناسب مع جو القصيدة العاصف ، وكل حركة تتفق وموسيقاها الصاخبة . الصدق .. صدق الفنان . هو الظاهرة الأولى فى شخصية صالح شرنوبى .. ويلى ذلك ظاهرة الانطلاق .. الانطلاق الحر الذى لا يقيده قيد ولا تحده حدود .. وهذا الانطلاق الفنى لا يتوفر إلا لكل شاعر

جبار الجناحين، قادر على التحليق فى الآفاق الواسعة، مكتمل الأداة، يسير فى حرية من فنه الذى لا يضيق به، ومن نفسه التى تتسع لزاد من الأحاسيس، لا يفنيه ضعف فى الملكة أو هبوط فى الطاقة، ترى ماذا أقصد بالانطلاق؟ الانطلاق فى رأيى، هو أن يكون الفنان صاحب «نفس خاصة» ينظر بها إلى زوايا الحياة نظرة خاصة به وحده، ويتأثر تأثرا له خصائصه المنفردة، وبميزاته التى تهيئ للفنان شخصية لا تضيع فى غمار الشخصيات الفنية الأخرى، ثم هو التعبير عن الإحساس بصدق بالغ مع التحلل من كل القيود التى تفرض من خارج النفس الفنانة.. الانطلاق مجملا، هو كما يقول صالح نفسه فى قصيدة «الشاعر»:

شاعر الكون لا يقيده الكو ... ن وإن ضمه تراب وماء
ساحر النور والظلام، وكم يسمو .. فتغنى فى نوره الظلماء
قلبه العالم الكبير ونجوا ... ه حنين ورحمة وإخاء
خلقه كالضياء فى كل حال ... فهو فى الحان والمصلى ضياء
عقله مسرح بنته القادير ... ووشت ظلاله الأضواء
أزلى .. ممثلوه رؤاه ... والأمانى المجنونة الخرساء

فالنظرة الفاحصة التى تتخطى بدقتها وروعتها وعمقها ظواهر الأشياء، والإحساس الشامل، والأفق الواسع، والتعبير الصادق، والشخصية الخاصة. كل هذه الأشياء هى حدود الانطلاق الذى يرفع من قيمة الفنان شاعرا كان أو موسيقيا أو مصورا

وهذا الانطلاق ظاهرة تلفت النظر فى شخصية صالح الفنية فى كل شعره على الإطلاق، تحسه وأنت تقرأ له: فى لفظه وموسيقاه، فى التفاته وصوره، فى دقات وجدانه الشاعر، ونبضات قلبه الفنان.. أو ليس منطلقا ذلك الذى كأنه يستشف حجب الغيب وهو يقول فى «أشواق الربيع»:

تعالى نخلق الحب ... فقد يخلقنا الحب
لنروى ظمأ الدنيا ... بما يوحى به القلب
فقد يخنقنا الترب ... ولم نعشق ولم نصب
وننسى أننا «كنا» ... وفى أيامنا جدب
تركناه بلا رى ... وفينا النهل العذب
تعالى فالردى الجبار ... لا يحنو ولا يرحم
وهذا سيفه المخضوب ... لا يبلى ولا يثلم
يربى ومضه مالا ... يربى ظله الأقتم
تعالى فالغد المرهوب ... فيه السنا مبهم
ويا ضيعة دنيانا ... إذا ولى ولم نعلم..

أو ذلك الذى يقول فى «الأفعى» مصورا لنا موقفا خالدا من مواقف البشرية، هناك... حيث يتصارع جسد المرأة، وجسد الرجل صراعا خالدا، .. ولكن المرأة فى هذه القصيدة ليست امرأة عادية، .. إنها أفعى، إنها بغى، .. وعليه ينطلق فى تلوين الصورة وتظليلها مختارا لها ما يناسبها من الألوان والظلال.. وذلك ما يبدو واضحا فى القصيدة الرائعة:

إشفلينى بما تريدين منى ... وامألى بالغرام سمعى وعينى
بفنون الإغراء باللهب الثا ... ئر من جسمك البديع الأغن
جسمك المبقرى شكلا وظلا ... القوى الغنى عن كل حسن..
إشفلينى فقد تنالين من عمـ ... ـرى يوما، نقضيه كالحالمين
عند هذا الركن القريب من الأر ... ض وإلا فمتد أبعد ركن
هو يوم كأى يوم سيمضى ... أو مضى فالحياة لون كلون
سوف نقضيه وحدنا.. ثم ترضين، وأشكو، وتشمتين، وأثنى
فى غرام مستهتر... يتصبى ... كل شئ فينا، ويحيى ويفنى
فى صراع يطول بالراحتين ... وبجسمى وجسمك المارين
وبما فى شبابنا من حياة. ... واشتهاء يطغى، وشوق يغنى
بين خمر ورخيصة وأغان ... ساقطات، تجرى، على غير لحن
ودخان معطر، نتعاطا ... بعيدا، فى وكرنا المستكن
وحديث مهلهل عن لياليـ ... ـك وعن قلبك الصغير المسن
ونكات حفظتها عن «أبى النوا ... س» أو عن جحا الحكيم المغن

تتقاضيني عليهـــا حياتي ... وتقولين قد رجعت بخفي ...

وننتقل بعد ذلك إلى شعر المناسبات عنده ، لنرى أن أهم ظاهرتين فيه أيضا هما : الصدق والانطلاق

وبين يدينا قصيدته « فاروقية » قائمة على ذلك بالدليل ، شاهدة عليه بالبرهان ، .. يقول في مطلعها : —

حادي الشمس لا تعجل سراها ... فهنا لو علمت نبع سناها
مل بها ساعة ... تبث هواها ... لجميـل هامت به مقلتاها

ويقول في ختامها الرائع : —

ملك تخشع القوافي لديه ... ناهلات من سحره معناها
كل أيامه ، ملاحم مجد ... ملأ الدهر كأسه من طلاها
إن تناهى القصيد دون علاه ... فمعاني علاه ... لا تتناهى

وكل ما عرفته عن حياته بعد ذلك موافق تماما لشخصيته الفنية التي استخلصنا حدودها من شعره ، ... فقد كان — على ما علمت — مسرفا لا يبقي في يده على شيء ، سمح الخلق ، رضي النفس ، ... شيء واحد أثار تعجبي ودهشتي ، ذلك أنه كان شابا حدث السن ، إذ ما كنت أتصور أن كل هذ النضج وكل هذه الأصالة ، يمكن أن تتوفر لشاب في مثل سنه ، والخطأ في دهشتي وتعجبي واضح بين ، إذ أن القرائن في ماضي أدبنا العربي ، وغيره من الآداب ، لا تنكر حدوث ذلك ، وفوق هذا ، فإن العبقرية غلابة على السن والجنس والنوع ، فليس من لوازمها أن يكون العبقري شيخا ، ولا من موانعها أن يكون رجلا لا امرأة ، أو مصريا لا فرنسيا ... ذلك لأن العبقرية كما قلنا لا حدود لها من سن ، أو جنس ، أو نوع

رحمك الله يا صالح ... إنها لخسارة فادحة حلت بالأدب العربي ، كم أدمت من نفوس ، كنت موضع آمالها ، وقبلة مناها ، وكم حطمت من أفئدة ، كنت ساكن سويدائها ، ورب هواها ...

ولئن كانت حياتك مثلا من الصدق والانطلاق ، لقد كان موتك ضربا من العبر التي لا تتكرر في كل حين ولكنها — على قلتها — خالدة ، وصفحة باقية ، جذبت إثرها من كتاب التاريخ صفحات ، ... وان يجد قائل ما يرثيك به خيرا من قولك أيها الفنان :

مات فرد ممن شدا الحق فيهم ... « أنتم الناس أيها الشعراء »

رجاء عبد المؤمن النقاش

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر، بأسلوب قوي ، واستيعاب موجز، وتحليل مفصل، واختيار موفق، ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع إحدى عشر مرة في ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد